أدب الامل والقوة والجمال

لا يزال قادة الأمم يعملون بكل ما أوتوا من حزم وعزم على إنهاض النفوس وملئها بحب الجهاد المثمر والاقدام والمثابرة ، عالمين أن كل تقدم أو رقى لا يستمد وسائله وأسبابه من روح الأمة سوف ينهار لدى أول عاصفة تلقاه ، وأن كل نهوض لا تغذيه همم قوية وعزمات ماضية متمكنة من الأفئدة سوف يبيد ويمحوه مر الأيام ، وهم لذلك يبذلون جهدهم فى غرس الامال والمثل العليا فى النفوس لتسير قدماً إلى الأمام ، ولا يزال الأديب يملك تلك القوة الكبرى التى يستطيع بها أن يوجه الأهواء إلى مايريد ويسير بالرغبات إلى حيث يشاء ، فللأدب تأثير بالغ ، وسلطان قوى على القلوب والأفئدة ، يملك عنانها ويهديها ، وقد تحدثنا فى كلمة سالفة عن تأثير شعر الزهد والتشاؤم(١) ، وأهبنا بالمربين والنشء أن يعرضوا عنهما الاعراض كله ، فلهما يعود جل ما نشاهده فى الشرق من تلك النظرة السوداوية ، وهذا الخمول والكسل يغمر الجو ويحول دون الاقدام ؛ واليوم نتقدم بحديث آخر عن هـذا اللون الجديد من الأدب ، هذا اللون الذى نحن فى حاجة قصوى إليه ، نستمد منه وسائل النهضة ونستلهمه روح الجد والمثابرة ونستهديه فى الحياة ونعمل بهديه ، وذاك اللون هو المفعم بالقوة الملىء بالامال ، وكفانا ما أضعناه من أيام غالية عزيزة فى دراسة تلك الاداب الميتة البالية التى تقتلنا يأساً وتملأ ناخوراً وضعفاً ، إذ يرى الناشىء أول ما يرى ويسمع أول ما يسمع سخطاً على الوجود وذماً للدنيا ، فينشأ هو الاخر متأثراً بذلك كله ، ناقماً على الحياة والأحياء ، فلا يلبث أن يؤثر هذا الأثر فى قلبه وينتج أسوأ النتائج ، ولا يلبث أن يلقى بسلاحه فى ميدان الجهاد الملىء بالصراع والزحام ، فاذا رمنا الرقى والنهوض فعلى قادة النهضة من كتاب ومربين أن ينتزعوا تلك الروح من نفوسهم ، ويضعوا عوضاً منها تربية جديدة وأدباً جديداً .

حدثوهم عن الناهضين فى كل أمة وعن النابغين الذين حفظ التاريخ ذكراهم وأبقى عليها ، واذكروا لهم أن أولئك الخالدين على مر الزمان لم ينالوا الخلود وهم كسالى نائمون ، أو ضعاف يائسون ، بل رسموا لأنفسهم مثلا علياً وجدوا فى السير إليها من غير أن يلحقهم توان أو فتور ، حدثوهم عن الامال الواسعة وكيف يمكن نيلها إن قويت همتنا ولم نيأس لدى الصعاب والعقبات ، وضعوا نصب أعينهم أن سعادة المرء فى الحياة منوطة بمقدار ما يبذله من جهد ، وما يقوم به من عمل وجهاد ، ذاكرين لهم أن الحظ لا يأتى عفواً ، ولا يصيب إلا كل مثابر صبور ،

---

(١) راجع « المعرفة » عدد يوليو سنة ١٩٣٢ .

وما دمنا نبث فى أذهانهم ونلقى فى أفئدتهم أن المجد لا ينال من طرق الخيال أو لمجرد الامال ، بل بالتمنى المصحوب بالعمل والأمل المقرون بالمثابرة ، فانهم سوف يواجهون الحياة بثغور باسمة وآمال شهية وقلوب قوية وهمة متحفزة .

إن أدب الآمال هو هذا الأدب المشرق بالنور الضاحك أمام الصعاب الهازىء بكل عقبة، ولعل الأمل طبيعة فى النفس الانسانية ، فهى تأمل ولكنها قل أن تعمل ، ولذا فان بعض الناس يفضل بعضاً بمقدار ما يبذله أحدهما من عمل فى سبيل نيل أمله ، فليضع المفكرون نصب أعينهم أنا نقصد إلى الأدب المليء بالتحفز والنشاط ولا نرمى إلى أدب خيالى وهمى يحلق بالنشء فى سماء الأحلام ، ويتخطى سياج الحقائق والواقع ، إلى حيث نعيش فى جو سحرى خلاب ، ولكننا ندعو إلى خلق أدب تتضافر فيه كل وسائل الحياة من آمال بعيدة وأمانى كبيرة تجد لذتها فى تحدى الصعاب حين تعترضها ، وتخطى العقبات التى فى طريقها .

ويتصل بأدب الآمال اتصالا وثيقاً أدب القوة، ونقصد بالقوة هنا ألا يستسلم المرء لحكم الواقع إلا بعد أن تنفد كل وسيلة لاصلاحه وتحسينه ، فان كثيراً مما نشاهده فى حياتنا المصرية من تأخر وحبوط يرجع إلى رضى المرء بما هو فيه، واستسلامه إلى الحالة التى رأى نفسه عليها غير مكلف نفسه مؤونة الجهاد والكفاح، وبذل قواه فى نيل ذرى السعادة والرقى ؛ وذاك ناشىء من غير ريب نتيجة روح الزهد التى غمرت الشرقى وأرضته بالقليل ، فأدب القوة نقصد به إبادة تلك الروح التى ما أنتجت إلا شراً ، ولا أفادت إلا أذى وضراً ، كما أنا نعنى بحب القوة هنا احتقار الضعف بكل معانيه ، وكفانا ما مضى من ركون تام إلى ظلام الضعف ودجاه ، فالعصر يضج بالقوة ولا يستطيع أن يسمع لغير لسانها ، أو يطيع إلا ما توحى به وتشير ، بل إن الطبيعة ذاتها تتبع هذا القانون فلا تبقى إلا على الأصلح الأقوى، وتبيد كل من لم يؤت حظاً من قوة تحفظه وسط تيارها المتدفق العجاج ، فعلينا أن نتهج نهجها فى آدابنا وتربيتنا، ولنثق دائماً بأن كل أدب خال من روح القوة فهو أدب فان لا يستحق البقاء ، فلنردد دائماً قول المتنبى شاعر القوة والامال الكبيرة :

ذريني أنل ما لا ينال من العلا ... فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تريدين إدراك المعالى رخيصة ... ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وقوله :

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت فى مرادها الأجسام

وقوله :

يهون على مثلى إذا رام حاجة ... وقوع الموالى دونها والقواضب

وقوله :

إذا غامرت فى شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

ولندع كل أدب يحقر تلك الروح أو يغمطها داعيا إلى الكسل والخمول .

ولنتحدث قليلا عن أدب الجمال ، ويكاد يكون هذا الأدب مفقوداً فى آدابنا المصرية ، إذا استثنينا بعضا من شعر الغزل واستثنينا شاعراً أو اثنين تحدثا إلينا عن جمال الطبيعة ، فانا لن نعثر بعد ذلك إلا على القليل ... والأديب حين يحدثنا عن الجمال نلمس فيه لباب الحياة وسر الوجود ، فالجمال هو المثل الأعلى لما أبدعته الطبيعة فى صفحة الكون ، فاذا حدثنا الأدب عنه جعلنا ننصت إلى تغريد الطيور ، وهدير الحمام ، وسجع البلابل ، وغناء الكروان ، ونرى بهجة الرياض الناضرة ، وفيها الأغصان معتنقة متشابكة ، والزهور تتوجها ، والورد يهيج نضير فى كمائمه ، ونبصر الشمس فى موكب جلالها مشرقة على الكون تهبه الحياة والنشاط ، وجمال منظرها فى الشروق والغروب ، وعمق أثرها فى النفس الرقيقة الحساسة ، ويصور لك الليل بنجومه السافرة ، وقمره الهادىء الوديع ، يبعث فى النفس الرضى والاطمئنان .

بيد أنا لا نريد أن نسمع من الأديب وصفا حسيا تلذه الاذان والعيون من غير أن يكون للعاطفة فيه حظ جزيل ، ولكننا نريد أن يتبع الأديب الطبيعة والواقع ؛ فنطلب إليه أن يصف ما يراه بعينه ويحسه بقلبه ، فالمرء حين يرى شروق الشمس مثلا يلذ لعينيه هذا المنظر ، كما يبعث فيه إحساسات شتى تختلط بقلبه ووجدانه ؛ ومن الغريب أن بيئتنا وطبيعة أرضنا كفيلة بأن توحى إلينا أسمى معانى الجمال وأدق آياته ، ولكنك تجد قصوراً واضحا فى أدبنا نحو تصوير تلك الناحية الخصبة ، ولا أدرى لذلك سببا إلا أنه جمود العاطفة التى لم تمتد فى طفولتها حب هذا النوع من الجمال ، ولكم تعجب حين تسمع شعر الغزل الذى يعتبر — بحق — روحياً أكثر منه حسياً ، فترى الشاعر لا يحدثك عن عواطفه وإحساسه ، ولكنه يمضى فيحدثنا عن محسوساته فحسب ، من غير أن يعرض للعاطفة أو يتكلم عنها ، ولسنا نلومه على أوصافه الحسية ، ولكننا نلومه على توجيه كل عنايته لهذا الضرب من الوصف .

إن الأدب المملوء بالجمال يبعث فى النفس قوة وحباً للحياة وابتساماً لكل ما فيها من سمو وكمال ، ولا يزال النجاح موقوفاً على تلك الذخيرة من السرور بالعمل والابتهاج للكفاح ؛ ولن تجد نبوغا إلا وهو ثمرة شهية لحب الجهاد والانتاج ، ولو أضفنا إلى ذلك ما يسديه أدب الجمال إلى النفوس اليائسة من سكون وطمأنينة وشغف جديد بما فى الوجود من بهجة وجلال — علمنا مقدار الأثر الكبير الذى يخلقه فى النفوس هذا النوع من الأدب وما يملأ به القلب من سرور واطمئنان ، وعلمنا أنه سمير اليائس الحزين يطيح ببؤسه وحزنه ، وخدين المتبرم بما فى الكون ، الساخط على القدر يزيل عنه تبرمه وسخطه ، وهو فوق ذلك أكبر باعث على نيل النجح والفلاح .

ألا يستجيب الشعراء والكتاب لتلك الدعوة ، فيقبلون على نسج منوال جديد، هو فى الحق خير ذخيرة يقدمونها لأمتهم المتطلعة إلى العلى المتحفزة للوثوب ؟ ولكن قادة الحركة الفكرية فى شغل عن تلك الألوان المشرقة النضرة، لأنهم يقاتلون باحثين دائما عن أدب الزهد والتشاؤم يملأون به آذان شبابنا حتى قعدت بهم الهمم دون بلوغ الغايات ونيل المآرب ؛ فكل أديب همه أن يسمعنا ما فى الحياة من شقاء وخيبة آمال، حتى ليخيل إليك أن كل ما فى الوجود خيبة وشقاء . وإن أنس فلن أنسى حديثاً كتبه المرحوم الأستاذ «السباعى» فى صفحات «المساء» يقول فيه : « ما افترق صديقان ثم اجتمعا بعد الافتراق إلا تحدثا عما لاقياه فى الحياة من صدمات وعقبات ، وحبوط وإخفاق»، فعجبت لهذا اللون الباهت من الأدب ينشره ناشر على الجمهور ، ليغرس فيهم روح اليأس والخمول ، وكم أجد من المرارة والغضاضة لدى ذكرى تلك الكلمة الأليمة التى كان أولى بصاحبها وأجدر أن يجعلها فى صدره ، لا أن يلوكها بلسانه وقلمه، ومن الخير له ولمثله أن يترك الحديث عن النجاح والحبوط لأولئك الذين لهم من الهمم ما يترفعون به عن التحدث بمثل هذا .

فرحمة بالشباب ، لا تقوموا سداً بينه وبين آماله وجهوده ، بما تبثونه فى صدره من كسل وخمول ، ورحمة بالنشء حين تجعلونه لا يرى الحياة إلا بعين مغيظة محنقة ، وأولى بمن ينصب نفسه داعياً إلى المثل العليا أن يخاطبنا دائما بلسان القوة والعمل ، فاذا نلنا ذلك فلنهنأ بما سنبلغه من رفعة ورقى ، وبما سيصيبه الوطن من تقدم وظفر ، فهيا يا دعاة المثل العليا إلى الطرق السديدة الناجحة؛ فالتربية الصحيحة المستمدة من الأدب الحى خير غذاء لفتياننا وشبابنا، وحسبنا ما قضيناه من أيام طويلة فى الزهد والتشاؤم !

أحمد أحمد بدوى

اطبعوا مطبوعاتكم

فى

مطبعة المعرفة

فهى مستعدة لطبع الكتب والمجلات والجرائد بغاية الدقة والاتقان

الادارة :رقم ٤ شارع عبد العزيز بالقاهرة